



حول "حدايق تونس" بمدينة إسطنبول

مؤيد المناري*

الملخص

يعرض هذا المقال محاولة تأريخ وتحديد لموقع بمدينة إسطنبول، ارتبطت تسميته بإيالة تونس في العهد العثماني. يُعرف هذا المكان إلى اليوم بالتسمية التركية "طونس باغى لرى" أي "حدايق تونس"، ويُعرف في الدراسات التاريخية التركية على أنه مجموعة من سواني الكروم التي أسسها القبطان بيالة باشا عند رجوعه غامًا من معركة جربة. وانطلاقًا من هذا المعطى واعتمادًا على المعطيات المصدريّة والطبوغرافية لمنطقة أسكدار، قمنا بمحاولة تحديد لموقع الحدايق ولو نسبيًا. كما قمنا بقراءة تحليلية لأحداث معركة جربة لفهم الظرفية التاريخية التي تأسست فيها هذه الحدايق وعلاقة ارتباط تسميتها بتونس. وعليه اتضح لنا جليًا أن اسم موقع "حدايق تونس" لا يعني فقط مجرد اسم مكان وأيضًا لا يقف عند عملية جلب فساتل الكروم التونسية وزرعها بإسطنبول، بل يتجاوزها ليعكس لنا مدى أهمية فوز الأسطول العثماني في معركة 1560م وضم جزيرة جربة، ذلك الحدث الذي قلب موازين القوى وسرع انفرد العثمانيين بسواحل البلاد التونسية. فتأسس هذه الحدايق التي لم يبق منها اليوم إلا اسم شارع غير بعيد عن مكانها الأصلي، يندرج في الذاكرة والتاريخ ليتّرجم رمزية الانتصار.

الكلمات المفتاحية: القبطان بيالة باشا، إسطنبول، أسكدار، طونس باغى لرى، حدايق تونس، كروم، معركة جربة، رمزية الانتصار.

المراجع لذكر المقال

مؤيد المناري، «حول "حدايق تونس" بمدينة إسطنبول»، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغربية [نسخة الكترونية]، عدد 6، سنة 2018.

الرابط <https://al-sabil.tn/?p=16660>

* - دكتور من جامعة إسطنبول قسم تاريخ الفن.



مقدمة

في مدينة إسطنبول وتحديدًا بالطرف الآسيوي بمنطقة "أسكدار"، احتفظت الذاكرة الشعبية المنبثقة من الماضي باسم مكان يعرف بـ "طونس باغي لري"¹ وتعني عند ترجمتها للغة العربية "حداائق تونس". لكنّ اندثار هذه الحداائق وتغيّر مشهدها الحضري القديم لا يسمح لنا بتحديد موقعها الأصلي منتهى الدقة. فكُلّ ما بقي منها اليوم اسم زقاق² يحمل نفس التسمية ولا نعرف هل اتخذ نفس المكان القديم للحداائق أم أنه ابتعد عنها، لكن تقريبًا اتخذت حداائق تونس موقع استراتيجي إمتد على كامل الهضبة المطلة على شبه الجزيرة التاريخية أين يوجد قصر الطوب كاي ومقر إقامة السلطان ورجال الدولة العثمانية. تسائلتُ عن ماهية تسمية "حداائق تونس" مع ثلّة من مؤرخي جامعة إسطنبول، فأفادني أستاذي محمت بهاء طمان أن موضوع "حداائق تونس" دائماً ما يُعرف في المنوغرافيات منطقة أسكدار باقتضاب شديد، على أنها حداائق كروم من تأسيس القبطان بيالة باشا، وأن الإشارات المصدريّة حوله متناثرة وأنه لم ينفرد بدراسة أحادية تميّط اللثام عن تاريخية اسم الموقع وظروف تأسيسه. فما هي حداائق تونس؟ متى تأسست وما هي ظروف تأسيسها؟ وما علاقتها بتونس؟

I. حداائق تونس بإسطنبول في مصادر القرن 10هـ/ 16م

تعود أول إشارة في مصادر الأدب التاريخي التركي لحداائق تونس Tunus Bağıları إلى القرن 10هـ/ 16م، حيث ذكرها المؤرخ "أيفان سراي" أنه مكان يقع بأسكدار، يعود فضل تأسيسه إلى القبطان بيالة باشا، الكالائي: "وبعد فتحه لجزيرة ساقيز بنى فيها جامعاً وحماماً وبنى في مدينة صندق كليدي ببحر (غليب اوغلو) جامعاً وفي أسكدار قام بإنشاء حداائق تونس المزينة، أما في منطقة قاسم باشا فقد قام ببناء مسجد من خالص وقفه وهو المسجد المعروف بمسجد بيالة باشا الصغير. كما بنى في مدخل سوق اوزون الواقع قرب سوق المرجان سبيلاً يعلوه مكتب صبيان"³. كما ذكر الرحالة والمؤرخ كاتب جلبي اسم "حديقة بيالة باشا" بمنطقة أسكدار ونعتها بأنها من "عجائب الدنيا"⁴. ويضيف جلبي في موقع آخر عند حديثه عن طبوغرافية منطقة أسكدار، هضبة بيالة باشا⁵.

أيضاً ورد ذكر "حداائق تونس" في عقد شراء أرض بمنطقة أسكدار مؤرخ بسنة 1076هـ/ 1666م. يذكر عقد الشراء أن الكتهدا الآغة يعقوب بن عبد المعين من أغوات القصر الجديد قام بشراء أرض تقع في حي حداائق تونس طولها وعرضها 90 ذراعاً ويحدها من جهة مقابر حسين بك ومن جهة أخرى مقابر حسين آغة ومن جهة ثالثة مقابر الدوكمجي باشي الحاج عثمان ومن جهة طريق عام. وقد دفع قيمة 4000 أقة فضية عملة الوقت وشهد ع ليه الوكيل داوود خليفة بن عبد المنان⁶. وعليه نستنتج أنه منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر أخذت منطقة

¹ انظر الخريطة رقم 1.

² انظر الخريطة رقم 2.

³ Ayvansarâyî Hafız Hüseyin, *Hadikatü'l-Cevâmi'*, İstanbul, 1281 (1864-65), T.2, p. 27. "Cezîre-i Sakız ibtidâ bunu yediyle feth olunmuştur. Orada bir Cami şerif ve bir tek hamamı vardır ve Kilid-i Bahrda dahi bir cami şerifi vardır ve Üsküdar'da Tunus Bağı demekle [ma'ruf] bahçe-i müzeyyen bunların binasıdır..."

⁴ Kâtip Çelebi, *Tuhfetü'l-Kibar fî Esfari'l-Bihâr*, İstanbul, 1973, p. 208.

⁵ Evliya Çelebi, *Evliya Çelebi Seyahatnamesi*, İstanbul, 1969, t.2., p. 362.

⁶ Topkapı Müzesi Sarayı Kütüphanesi, E, 1285, 26 Cumaziye'l-ahir 1076 (3 Janvier 1666). "Medine-i mezbure (Üsküdar) haricinde Tunuslu Bağı nâm mahallede vâki bir taraftan Hüseyin bey makabiri ve bir taraftan dökmeçi başı el-Hac Osman makabiri ve bir taraftan Hüseyin ağa makabiri ve bir taraftan tariki 'âm ile mahdûd..."

"حدائق تونس" شكل حي سكني، فقد وردت باسم "محلة" Mahalle أي الحي باللغة التركية ولم تعد تمثل حدائق بالمعنى الحقيقي للكلمة.



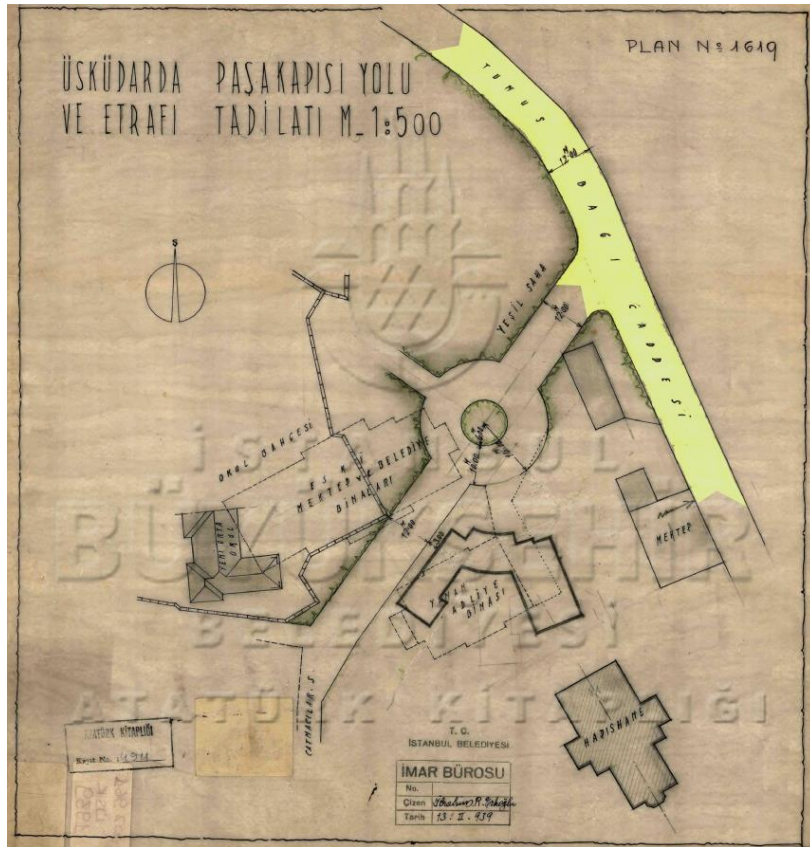
الموقع التقريبي لمكان حدائق تونس

(خريطة أسكدار بين سنة 1923 — 1927م، أرشيف مكتبة كمال أتاتورك، ملف رقم Hrt-001111).

تعني كلمة باغ Bağ في اللغة التركية الحديقة المزروعة بالكروم أي العنب. كما تجمع المصادر التركية على أن منطقة أسكدار كانت مشهورة بحدائق العنب فمثلا يذكر الرحالة "أفليا جلي" أن في منطقة أسكدار بالمكان المعروف

تحديدا باسم "بالار باشي" (Bağlar başı) أي رأس حدائق العنب، يوجد حوالي أربعة آلاف شجرة عنب وثلاثة آلاف شجرة ورد، ومن يضيف أن من أشهر ثمار أسكدار يوجد العنب الأحمر ومشروب عنب القرنفل.⁷

يذكر المرحوم الأستاذ التركي محمت نرمي هاسكان في كتابه حول أسماء الأماكن بمنطقة أسكدار أن القبطان بيالة باشا جلب من جزيرة جربة بعد انتصاره في معركة 1560 ضد الإسبان، شتلة العنب التونسي وزرعها في المكان الذي سيصبح فيما بعد يعرف بحدائق تونس. لكن لا يذكر الأستاذ هاسكان مصدر هذه المعلومة أي الإتيان بالعنب من تونس بعد معركة جربة. ويبدو أنه يعتمد على أوقاف لم تنشر بعد.⁸ ورغم عدم ذكره لمصدر المعلومة وإقتصاره على ذكر وقف، نسلّم بصحة هذه المعلومة التي أوردها المرحوم العلامة الكبير الأستاذ محمت نرمي هاسكان، وسبب ذلك يعود أولا في عدم التشكيك في نزاهة هذا المؤرخ وثانيا أنه من متساكني أسكدار وأن إمكانية إطلاعه على مخطوطات غير منشورة وارد جدا. كما أن الأمر منطقي جدا فتونس مشهورة منذ الفترة القديمة بزراعة الكروم ومختلف أنواع العنب وأن جلبه لشتلة من العنب التونسي لزرعها في إسطنبول أمر لا يقاس حتى بقوة العلاقات المتينة بينه وبين الأهالي قاطني الجزيرة الذين كانوا سندا له أثناء الحرب باعتبار الوحدة الدينية "الإسلام" ضد الإسبان والوحدة الكاثوليكية.



موقع زقاق وحي حدائق تونس بمنطقة أسكدار سنة 1939م
(أرشفيف مكتبة كمال أتاتورك، ملف أرشفيف الإحصاء مخطط رقم 1619 تصنيف (Hrt-004911))

⁷ Evliya, Seyahatname, p. 366.

⁸ Mehmed Nermi Haskan, 2001, p. 1295.



II. من فتح جزيرة جربة إلى حدائق تونس بإسطنبول

أثناء ذروة الصراع بين الأتراك والإسبان على سواحل شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، شهدت سنة 967هـ / 1560م حدثاً هاماً حسم في مسألة تبعية جزيرة جربة لفائدة الأتراك نهائياً. كان بطل هذه المعركة الشرسة ضد الإسبان القبطان بيالة باشا. بعدما تَمَرَسَ هذا القبطان على البحرية بالمشاركة في حملات الرايس طرغود باشا، وبعدها تقلّب في عدة مناصب بحرية وتعلم تقنيات تحصين وترميم السفن في ورشات الترسانة العامة للصناعة بإسطنبول وصنّج "غليب اغلو"، ركب البحر متعطشاً للممارسة القرصنة ومعرفة خبايا معاهدات السلم والحرب بين سلاطين وملوك الامبراطوريات الكبرى. فكان أول ظهور جدي له سنة 962هـ / 1555م عند خروجه لمساعدة فرنسا ضد الإسبان أين حقق انتصاراً ملحوظاً جعل الفرنسيين يتمسكون بمحالفه الأتراك إلى حدود سنة 965هـ / 1558م. كما هاجم بيالة باشا قلعة الجزائر سنة 963هـ / 1556م بمساعدة بكربكي الجزائر آنذاك صليح باشا. وافتك قلعة وهران من أيدي الإسبان. ورغم عودته لإسطنبول على إثر فرمان أرسله الديوان الهمايوني مع كليج علي باشا أمر فيه بفك الحصار على قلعة وهران والرجوع إلى إسطنبول في أسرع وقت، عاد في رجب من سنة 964هـ / ماي 1557م بأسطول يتكون من 100 كاديركه ليفتك قلعة بنزرت من الإسبان.⁹ في هذه السنة تحصّل بيالة باشا على رتبة "القبطان ميرميان الجزائر" أي البكربكي الأكبر لجزر بحر سفيد التي كانت تضم أوجاق الغرب وقتذاك.

في بداية سنة 1560م أرسل طرغود باشا بكربكي طرابلس الغرب إلى الباب العالي يعلم بأن أسطول الإسبان على القرب من سواحل الوجود. لكن قبل وصول المدد وبتاريخ 14 جمادى الآخرة 967هـ / 12 مارس 1560م دخل الإسبان جزيرة جربة. في الأثناء جهّز بيالة باشا حسب المصادر مائة وعشرين كاديركا للحاق بطرغود وتخليص جربة. تسلّم بيالة فرمان السفر (برات) للقيام بالمهمة في 14 رجب 967هـ / 4 أبريل 1560م. ووصل في 15 شعبان الموافق لـ 11 ماي إلى جزيرة جربة وعندها بدأ تبادل القنابل المدفعية مدّة ثلاثة أيام متواصلة أسفرت إلى تحطيم جزء كبير من أسطول المتفقين الكاثوليك وهروبهم إلى قلعة جربة والتحصن بها.¹⁰ أما بالنسبة لمراحل المعركة فقد وثق تفاصيلها زكرياء زاده الذي كان شاهداً عياناً، ووصف لنا تفاصيلها في كتابه فرح جربة.¹¹ يذكر المؤلف أن الإسبان وحلفائهم لم يقدروا على مواجهة بيالة باشا في البحر ففروا هاربين إلى القلعة بعدد يتراوح بين 7000 و8000 آلاف شخص.¹² تمت محاصرة القلعة برا وبحرا مدة يومين وجاء المدد العسكري من مدينة القيروان وطرابلس وصفاقس.¹³ وبدأ الإسبان يخسر جيشه شيئاً فشيئاً مع تقدم الجيش التركي الإنكشاري بتقنية حفر الخنادق وسدّ الطرق الموصلة لآبار المياه. خسر الحلفاء الكاثوليك في هذه المعركة التي قتل فيها بين 800 و900 شخص وأسر كل من القلعة بكبار ضباطهم ورياسهم. حسم أمر جربة نهائياً في شهر سبتمبر من سنة 967هـ / 1560م ورجع الأسطول الهمايوني بقيادة بيالة باشا إلى إسطنبول في 6 محرم 968هـ جري الموافق لتاريخ 27 سبتمبر 1560م. لكن قبل الرجوع وأثناء محاصرة الإسبان بالقلعة، يذكر زكرياء زاده أنه بتاريخ 12 ذي القعدة الموافق لـ 4 أوت 1560م دخل بيالة باشا إلى طرابلس الغرب للقبض على بعض "العربان" التي شقت طريق العصيان والوقوف ضد طرغود باشا.¹⁴

⁹ Çelebi, 1973, s. 102.

¹⁰ Ibid.

¹¹ Zekeriyazade, 1988.

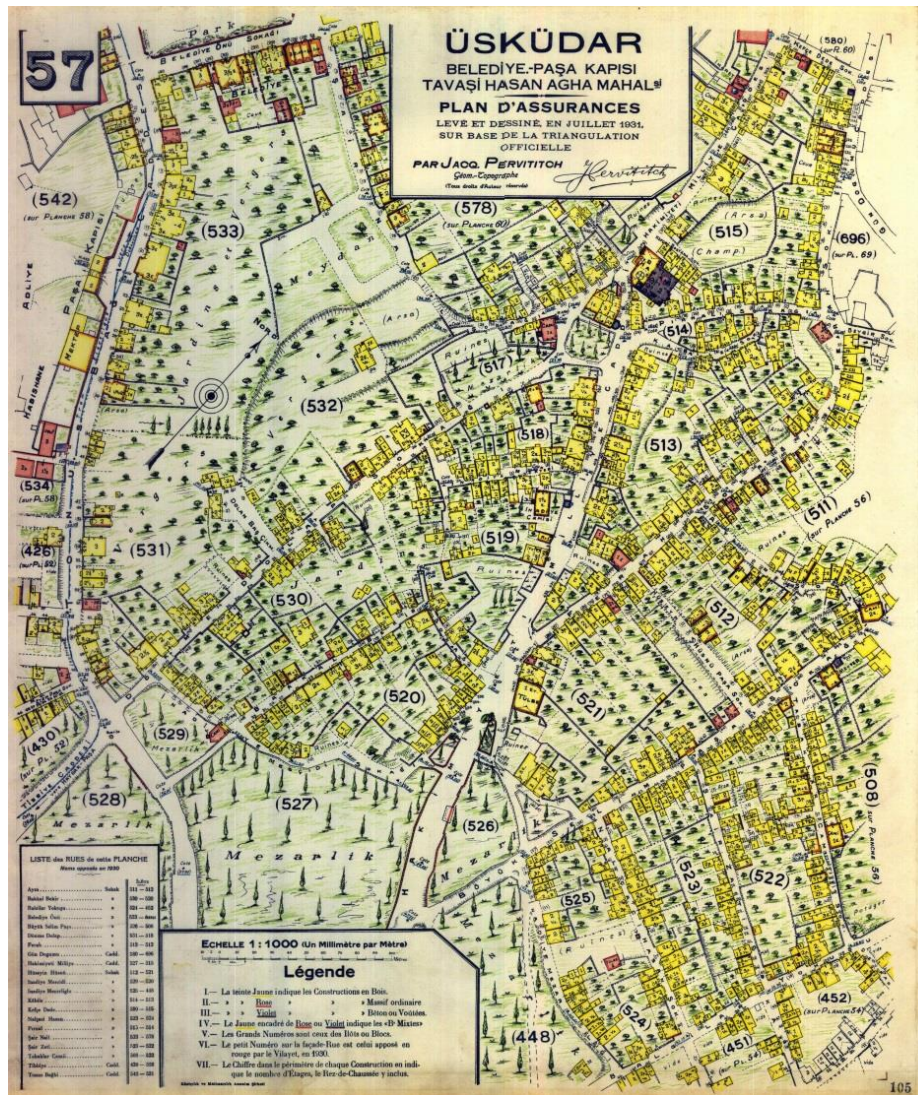
¹² Ibid., p. 100.

¹³ Ibid, p. 101.

¹⁴ Ibid, p. 102.



إن الهدف من تقديم هذا الملخص التاريخي هو إبراز قوة البكلربكي قطبان البحر بيالة باشا ومدى حرصه على ضم جربة ووعيه بالأهمية الاستراتيجية المميزة لهذه الجزيرة التي تقع بين إيالة طرابلس وولاية تونس. كما تتجلى أهمية الجزيرة في ضراوة المعركة التي تعتبر في تاريخ البحرية العثمانية من أشرس المعارك البحرية. هنا، يتسنى لنا بعد التذكير ببطولة بيالة باشا ورمزية شخصيته، الربط السلس بمسألة عودته منتصرا إلى إسطنبول وتأسيسه لحدائق تونس تخليدا للنصر. فقد ارتبط أحداث هذه الحدائق لدى المؤرخين الأتراك ارتباط وثيقا بحادثة فتح جزيرة جربة، ذلك الحدث العظيم الذي سعد له أغوات الديوان الهمايون عند سماعه. والذي كان له أن يغيّر مجرى الأحداث لو خسر العثمانيون هذه المعركة أمام الإسبان. وخير دليل على الفرحة التي غمرت السلطان سليمان القانوني وابنه ولي العهد سليم بتصفية مسألة جربة لحسابهم، هو تزويج قطبان البحر بيالة باشا بالسلطانة "جوهر" ابنة سليم الثاني وتنصيبه في مرتبة الوزير¹⁵.



هضبة حدائق تونس سنة 1931م، وفي يسار الصورة يظهر اسم

الشارع الذي يحمل اسم حدائق تونس "TONUS BAĞLARI"

(من كتاب: Jacques Pervitich, *Sigorta Haritalarında İstanbul 1922-1945*, İstanbul, 2000, p. 252.

¹⁵ Çelebi, 1973, p. 105.



خاتمة

ما يمكن استنتاجه في أعقاب هذا العرض وبناء على ما قدّمناه، هو أن تسمية حدائق تونس تعود إلى القرن السادس عشر وهي من تأسيس القبطان بيالة باشا الذي يبدو أنه قام بزرع فسائل الكروم التونسية ثم جلبها من عند أهالي جزيرة جربة في حدائق كانت تحيط بقصره في منطقة اسكدار. كما يمكن أن نستنتج أن تسمية "حدائق تونس" لا تقف عند اسم المكان أو الزقاق في منطقة اسكدار بإسطنبول اليوم فحسب، بل تعتبر هذه التسمية ترجمة لرمزية الانتصار وتخليدا يعكس أهمية ضم جزيرة جربة لجغرافية الإمبراطورية العثمانية. انتصارٌ لقي صداه وتُرجم هذه المرة باتجاه عكسي أي من الإيالة (جربة) إلى مركز الحكم بإسطنبول وسُجل لصالح القبطان بيالة باشا الذي كان له باع في أحداث السيطرة على قلعة بنزرت قبل جربة وفي تمهيد الطريق إلى سنان باشا لفتح تونس نهائيا سنة 1574م.

المصادر والمراجع

Ayvansarâyî Hafiz Hüseyin, 1281, *Hadîkatü'l-Cevâmi'*, İstanbul.

Evliya Çelebi Mehmet Zıllî oğlu, *Evliya çelebi Seyahatnamesi*, 1969, haz. Zuhuri Danışman, 2.II, İstanbul.

Kâtip Çelebi, 1973, *Tuhfetü'l-Kibar fî Esfari'l-Bihâr*, İstanbul.

Zekeriyyazâde, 1988, *Ferah Cerbe Fetihnâmesi*, Haz. Orhan Şaik Gökyay.

Jacques Pervitich, 2000, *Sigorta Haritalarında İstanbul 1922-1945*, İstanbul.

Mehmed Nermi Haskan, 2001, *Yüzyıllar Boyunca Üsküdar*, İstanbul.